# الضمير في الفكر الأخلاقي الاسلامي

**أ.م.د. هناء زايد عباس**

الجامعة المستنصرية / كلية التربية / قسم العلوم التربوية والنفسية

البريد الإلكتروني Email: Hana.z76@uomustansiriyah.edu.iq

**الكلمات المفتاحية:** الضمير – الفكر – الاخلاقي.

**كيفية اقتباس البحث**

عباس ، هناء زايد، الضمير في الفكر الأخلاقي الاسلامي، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، تموز ٢٠٢٥،المجلد:١٥ ،العدد:٤ .

**هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر ( Creative Commons Attribution ) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.**

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

# Conscience in moral thought

**Assistant Professor Hanaa Zayed Abbas**
Al-Mustansiriya University / College of Education / Department of Educational and Psychological Sciences

**Keywords** : Conscience - Thought – Ethics.

**How To Cite This Article**
Abbas, Hanaa Zayed, Conscience in moral thought ,Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, July 2025,Volume:15,Issue 4.

**This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/**

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

## Abstract

We can say that there is a force deep within the human soul that warns and prevents him from doing evil, and this force itself rebukes him in the event that he commits evil deeds, and on the contrary, in the event of doing good deeds, where we hear an inner voice that prompts us to complete and accomplish the duty, so it encourages him and continues in it, and if he completes his deed, he feels comfortable and happy, and this commanding and prohibitive force within us is called conscience, as it is the one that guides us to do the duty and itself forbids us from doing vice.

This is what the Qur'anic texts and what is based on them from the Islamic heritage indicate that man possesses an enlightened force other than reason that performs the process of obligating duty according to the moral law in Islam, that force is what is called the moral conscience, and with this, we came with two topics, in the first topic we talked about the meaning of conscience in moral studies, and in the second topic we talked about conscience in Islamic thought.

Moreover, we have seen some researchers trying to present an image of moral conscience as an image of obligation, citing Socrates, who represented conscience in what he called the voice of God within

him, following that with those who came after him in philosophy. They also relied on what they found in the Old and New Testaments, represented in what they included of images of prohibition that came with the divine commandments and orders and that became widespread after that in religious ethics.

**الملخص**

يمكن ان نقول انه توجد في اعماق نفس الانسان قوة تحذره وتمنعه من فعل الشر وهذه القوة هي نفسها توبخه في حالة اتيانه بأعمال الشر، وعلى عكس ذلك في حالة الاتيان بأعمال الخير حيث ، نسمع صوتاً داخلياً يدفع بنا الى إكمال وإتمام فعل الواجب فيقوم على تشجيعه وعلى الاستمرار فيه فاذا أتم فعله شعر بارتياح وسرور وهذه القوة الامرة الناهية في داخلنا تسمى الضمير فهو الذي يرشدنا الى عمل الواجب ونفسه ينهانا عنى فعل الرذيلة.

وهذا ما اشارت اليه النصوص القرآنية وما يستند اليها من التراث الإسلامي الى ان الانسان يمتلك قوة مستنيرة غير العقل تقوم بعملية الالزام بالواجب بموجب القانون الأخلاقي في الإسلام تلك القوه هي ما يسمى بالضمير الأخلاقي، وبهذا جاء عثينا بمبحثين تكلمنا في المبحث الاول عن معنى الضمير في الدراسات الأخلاقية وتحدثنا في المبحث الثاني عن الضمير في الفكر الإسلامي.

فضلا عن ذالك رأينا بعض الباحثين يحاولون أن يقدموا صورة للضمير الأخلاقي ، كصورة من صور الالزام ، مستدلين على ذلك بسقراط ، الذي تمثلوا الضمير عنده فيما أسماه بصوت الاله في داخله ، متتبعين ذلك عند من اتوا بعده في الفلسفة ، كما استندوا على ما وجدوه في العهد القديم والعهد الجديد متمثلاً فيما اشتملت عليه من صور التحريم التي جاءت بها الوصايا والأوامر الالهية وشاع بعد ذلك في الأخلاق الدينية.

## المبحث الأول

## مفهوم الضمير

قد شغلت فكرة الضمير العديد من الباحثين في مجالات متعددة، من بين هذه المجالات المجال الأخلاقي.

وبالرغم من الغموض الذي أحاط بفكرة الضمير الأخلاقي حاول الباحثون في الأخلاق تحديده كأساس لا غنى عنه في علم الأخلاق، أن تصريحاً أو تلميحاً، خالصاً أو مختلطاً بغيره

من المفاهيم، وقد حاول الباحثون العودة بالضمير إلى نشأة علم الأخلاق، فصوروه لدى سقراط مختلطاً بصوت الالة تارة ومختلفاً بصوت العقول تارة أخرى [١].

وسقراط لم يقل صراحة بما نسميه الضمير ، ولكنهم يستنطقونه فيقولون : ماذا يعني سقراط بصوت الالة ، الا ما نسميه اليوم بالضمير ، وذلك من خلال تأملهم لاعتراف سقراط ، بأنه لم يكن يتخذ في أمور حياته رأياً حاسماً قاطعاً الا بعد الرجوع الى نفسه والاصغاء الى هذا الصوت الداخلي صوت الالة في نفسه [٢] ، هذا الصوت الذي جعله يستمر في مناقشة شبان أثينا ويحثهم بعمله على مراجعة أنفسهم ، يمضي في ذلك ليله ونهاره لا يستريح ولا يريح ، ويبقى متيقظاً ويوقظ الاخرون معه ، وهذا هو الصوت الذي ألهمه الاجابة على متهميه في محكمة أثينا ، جعله يواجههم بشجاعة لا تضعف امام الظلم ولا يخشى وعيداً وهو الذي دعاه أخيراً إلى رفض عرض ( كريتون ) عليه بالهرب ، واعده الى استقبال الموت باسماً ومطمئناً[٣] .واستمر الحال بشأن الضمير على ما هو عليه عند خلفاء سقراط من افلاطن وارسطو الى الرواقية من بعدهما ، الا ان البحث فيه لم يستقيم بسبب عدم امكانية تنقيته مما يسمى بصوت الالة ، او صوت العقل ، الامر الذي جاء به مختلقاً بهذا او ذاك ، مما أدى الى التحول والانحراف في تصوير الضمير عن معناه المقصود في الأخلاق ، وسقراط مسؤول الى حد ما عن هذا التحول وعن هذا الانحراف ، وانه لم يكن واضحاً كل الوضوح في دعوته ، فهو قد جمع في الضمير بين القوة الآمرة الناهية ، وبين روح المناقشة والجدل ، وبين الأمر الأخلاقي والعقل النظري [٤] .

وإذا كان البحث في الضمير قد عرف طريقه الى الدراسات الأخلاقية بعد ذلك كأمر مستقل ، واصطلاح يحمل نفس المعنى، فأن ذلك لم يتم الا في وقت متأخر ، فكلمة (Conscience) التي عرفتها اللغة اللاتينية، لم تتضمن المعنى المقصود بالضمير الأخلاقي ككلمة تمييز بين الخير والشر الا في سنة ١٢٢٥م[٥] ، وظل هذا المعنى غريباً عن اللغة العربية حتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، حين بدئ في ترجمة كلمة (Conscience) الاجنبية في كلمة ضمير في العربية ، وحتى هذه الترجمة العربية كانت مثار غموض لاستخدامها تعبيراً عن الضمير الخلقي والنفسي معاً[٦] .

أما عن المعنى المقصود بكلمة ضمير ، فقد تردد ايضاً عند الباحثين باختلاف نظرهم واتجاهاتهم فـ " لالاند " مثلاً يعرفه بانه " خاصية العقل في اصدار أحكام معيارية تلقائية ومباشرة على القيمة الأخلاقية ، متمثلاً في شكل صوت يأمر وينهي بالنسبة للأفعال المقبلة أو في مشاعر السرور ( الرضا ) أو الألم ( التأنيب) بالنسبة للأمور الماضية ، كما يعرفه البعض الاخر بأنه " معرفة الخير والشر ، ويرفض البعض الثالث كون الضمير قاصراً على مجرد

المعرفة ويفضلون تحديده بانه " ملكة الاقرار والاستهجان " ، أو ملكة تذوق الخير والشر ، وإعلان القبول للخير ، والنفور من الشر ، كما يوحد فولكييه بين الضمير وخاصة العقل مستشهداً بقول القديس توما الاكويني : " إن الضمير هو على نحو ما الحكم الصادر من العقل "[٧] .

والملاحظ في هذه التحديدات التي أوردها الباحثون للضمير، أنها كلها تحديدات تؤكد علاقة الضمير بالخير والشر، موضوع المعرفة الأخلاقية، سواء كانت هذه العلاقة علاقة تعريف بالخير والشر، أو علاقة حكم قائم على الاقرار أو الاستهجان، والقبول أو الرفض، الأمر الذي لا نرى معه تحديداً واضحاً لوظيفة الضمير الأخلاقية، الأمر الذي يجعلنا بالتالي نتساءل عن طبيعة تكوين الضمير الأخلاقي.

**الضمير الأخلاقي بين العقليين والتجريبيين:**

إذا كان الاختلاف حول تعريف الضمير بين مؤرخي علم الأخلاق أمراً غير محدد ، فقد تحددت معالم هذا الاختلاف فيما بينهم حول تكوين الضمير ، وخاصة فيما بين مجموعتي العقليين والتجريبيين ، فقد اختلف الباحثون في الاختلاف حول مسألة الضمير : هل هو كسبي أم فطري [٨] ، وتفرقوا في ذلك شيعاً وأحزاباً ، فمن القائلين أنه كسبي أصحاب الاتجاه الواقعي في فلسفة الأخلاق محدثين ومعاصرين ، وهم من يسمون بأصحاب النزعة التجريبية في الأخلاق ، تلك النزعة التي نشأت في القرن السابع عشر ، وتطورت حتى بلغت أوجها في مذهب المنفعة العامة ، والنفعية التطورية عند الانجليز ، ثم في فلسفة الوضعيين من الفرنسيين بوجه خاص، وقد اتصلت جهود أهملها طوال القرن العشرين في الفلسفة العملية البراغماتية عند الامريكيين ، وكان أخص ما يميزها ارجاع الأخلاقية او الضمير الى التجربة وتعليقها على نتائج الافعال وآثارها ، ورد الخيرية والشرية الى وجدان اللذة والالم ، أو المنفعة والضرر ، والقول بذاتية الأحكام الأخلاقية ونسبية القيم وتغيرها بتغير الزمان والمكان [٩] ، كما يدخل ايضاً في هذا الاتجاه التجريبي فيما يتعلق بتكوين الضمير المدرسة النفسية والمدرسة الاجتماعية .

فعلماء النفس العام مثلاً يرجعون تكوين الضمير إلى قوانين نفسية وبيولوجية على أساس أن الانسان في الاصل يعمل وفقاً للذة ، ولكنه بذكائه سرعان ما تبين له ان ليس من مصلحته انتهاب اللذات أياً كانت ، فرب لذة عاجلة تقضي على الاستمتاع بلذات أكبر آجلة ، وشيئاً فشيئاً حدث نقل للقيمة ، وانفصلت اللذة عن الفعل الجالب لها ، وأصبح هذا الفعل ذا قيمة في ذاته [١٠] ، وثبتت العادة هذا الوضع في الفرد ورسخته الوراثة في النوع ، حتى وجدت لبعض الافعال

صفة الالزام التي تفرض نفسها على الشعور ووفقاً لهذه النزعة يتكون الضمير بفضل تداعي المعاني والعادة والوراثة .

اما انصار التحليل النفسي عند فرويد واتباعه ، فيزعمون أن الضمير هو حاصل الضغوط الابوية على الطفل ، وهي ضغوط تتألف من أوامر ونواه وتحريمات ، منها يتكون ما سماه فرويد بالانا الفوقاني ، وتكوين الانا الفوقاني او الاعلى يسبق تاريخياً تكوين الضمير الأخلاقي ، فذا الاخير لا يبدأ في التكوين الا ابتداء من سن الثامنة عشرة ويستمر تكوينه طوال عهد المراهقة ، ماراً بكثير من التغيرات والاكتساب النهائي للاستقلال الذاتي الأخلاقي يتم عادة وكقاعدة عامة مع نهاية المراهقة ، اعني مع اكتساب النضوج العقلي ، ومن هذه الناحية يؤذن بالانحلال النهائي للانا الفوقاني نظرياً على الاقل ، إذ أن الانا الفوقاني لا يزول نهائياً ابداً [١١] .

اما الاجتماعيون فيذهبون في تكوين الضمير الى انه يتكون نتيجة مجموعة من الضغوط الاجتماعية التي تسلط على الفرد اعتباراً من نظام التربية في الاسرة والمدرسة فضلاً عن سلطان المؤسسات والنظم الاجتماعية الاخرى ، بالإضافة الى سلطان العرف والتقاليد وضغوط البيئة الثقافية والحضارية ، كل هذه في نظر علماء الاجتماع أمور تتضافر على تكوين ضمير الفرد ، ومن الضمائر الفردية عندهم يتكون الضمير الجمعي ، يقول دوركهيم أمام المدرسة الاجتماعية " حين يتكلم الضمير ، فالمجتمع كله يتكلم فينا"[١٢] "الضمير الجماعي هو الذي يفكر ويشعر ويريد ، وان كان لا يستطيع أن يريد أو يشعر أو يميل الا بواسطة الضمائر الفردية "[١٣] .

أما انصار الضمير الأخلاقي فلا ترضيهم صورة الضمير التي انتهى اليها علماء النفس ، ولا تلك التي انتهى اليها علماء الاجتماع ، لان كلا منهما فيما رأوا يعتبره صورة للقهر ، سواء نتجت هذه الصورة عما يتكون لدينا من عادات أو ما يترتب على قوانين تداعي المعاني كما هو عند علماء النفس ، او نتجت عن سلسلة الضغوط الاجتماعية أو القدوات التي يقدمها المجتمع من خلال نظام التربية والثقافة ، وألوان الحضارة السائدة فيه ، كما يرى علماء الاجتماع ، وذلك لأن كلتا الصورتين تفتقر الى الجانب الذاتي النابع من الانسان ، والذي على أساسه يلتزم الانسان بهذا أو ذاك من الافعال ، فعلى حد تعبير جبريل مادينيه : ان الفرد مهما يكن طيعاً لأوامر الجماعة فانه ينبغي ان يصادق عليها باطنياً ، إذا شاء أن يفعل بوصفه كائناً أخلاقياً ، وإلا يكون مجرد حمولة في ماكينة وانخراطن في المجموع الاجتماعي يجب ان يكون عن موافقة منا ، ومن ثم فان مجموع الضغوط الاجتماعية طبقاً لهذا الاتجاه ، فهي وأن بدت مقدسة فهي كذلك عند الاطفال او البدائيين ، ولا ينبغي ان تكون كذلك عند الرجال العقلاء الا بوصفها مستمدة من القيم العقلية[١٤] .

ومن التجريبيين ايضاً يوجد اتجاه او مدرسة لها رأي في تكوين الضمير ، تلك هي مدرسة الترابطيين ، او من يعرفون بأصحاب المنفعة وخلاصة رأيهم في نشأة الضمير أنه ينشأ في الانسان نتيجة لربطه بين بعض الافعال وبين ما ينشأ عنها من عقاب أو ألم وثواب أو لذة ، تلك التي يحددها القانون او العرف ، ومع الزمن يتلاشى ذلك الربط ليحل محله احترام أو تقدير أو شعور بالرضا نحو تلك القوانين او الاعراف التي تحمي مصلحة الاخرين ، أو تعاقب على الاساءة اليهم ، ومع تنمية وتقدير هذه المشاعر الطيبة في الانسان نحو ما فيه مصلحة الاخرين يجد الانسان نفسه مدفوعاً بذاته نحو احترام هذه المصالح ومراعاتها بقوة تبدو مستقلة عن الاحساس بما يترتب على ذلك من لذة أو من ألم وثواب أو عقاب تلك هي قوة الضمير ، ذلك الذي يبدو مستقلاً يسند نفسه[١٥] .

وقد يعترض على هذا القول: من أين جاء ما اسموه بالضمير هذا الاستقلال عن كل لذة أو ألم؟ ومن أجل الاجابة على ذلك يقول جماعة التطوريين وعلى رأسهم هربرت سبنسر بان ذلك الاستقلال للضمير قد تم من خلال الحياة البشرية وتطورها عبر الاجيال وما تحمله من مراحل التكيف التي تمثل في نفس الوقت مراحل التقدم الأخلاقي ، وذلك بفضل الزام المجتمع للإنسان بقواعد تسهم في تحقيق ذلك التكيف وشعور الانسان شيئاً فشيئاً أن سلوكه الأخلاقي في هذا والمفروض عليه من المجتمع هو السلوك الطبيعي ، ينشأ عنده الالتزام بهذا السلوك هذا الالتزام وما يكمن خلفه من قوة تدعمه ، مستقلة عن قوانين المجتمع واعرافه ، هو ما يسمى بالضمير الأخلاقي كما يتصوره اصحاب النزعة التطورية [١٦] .

وفي مقابل وجهة نظر اصحاب الاتجاه التجريبي توجد وجهة نظر اصحاب النزعة العقلية التي يذهبون فيها الى القول بفطرية الضمير الأخلاقي ، وقد كان من أبرز انصار هذه النزعة الفيلسوف الأخلاقي يتلر الذي حمل مذهبه في الأخلاق اسم الضمير ، وانتهى الى تصوير الضمير على انه قوة عليا مغروسة في طبائع البشر ، وهو يمثل لدى الناس جميعاً القوة الملزمة لهم بسلوك الطريق السوي الذي ينبغي ان يسلكوه وضرورة سلوكه دون غيره ، والضمير عنده يقوم بوظيفتين ، الأولى تتمثل في القدرة على التروي والتبصر، مما يمكنه من إدراك أي الافعال الانسانية خير وأيها شر ، أو ايهما صواب وايهما خطأ ، وكذلك التمييز بين ما هو نافع منها وما هو ضار ، مكتشفاً ما وراء كل فعل منها من ظروف وملابسات وما يرتبط بها من جزاء واستحقاق ، وعلى هذه الوظيفة تترتب الوظيفة الثانية للضمير [١٧] ، التي تتمثل في الميل بالإنسان والاغراء له بفعل الخير والبعد به والتنفير له من فعل الشر ، مع تصوير ما يرتبط بفعل الخير من راحة وطمأنينة ، وما يرتبط بفعل الشر من قلق وضيق وهذا كله مع كفالة الحرية

للإنسان فيما يأتي أو يتجنب من أفعال وما يقع عليه بسبب ذلك من تبعية او مسؤولية اخلاقية [١٨] .

وفي نفس الاتجاه يسير بعد ذلك الفيلسوف الالماني كانط في تصويره لقوة الالزام بالواجب ، وأن لم يطلق عليها الضمير ، بل استبدلها بما اسماه بالإرادة الخيرة أو العقل العملي ويهمنا هنا ان نبرز تركيز كانط على رفضه لكل ما هو تجريبي في تكوين هذه القوة الملزمة ، وتأكيد مصدرها الفطرة في الإنسان أو ما يسميه بالقبلي فهو يرى " أن أسوأ خدمة يمكن أن تسدي إلى الأخلاق، هي أن نريد استخلاصها من القدوات ، لأن كل قدوة يشار إليها ، يجب أن يحكم عليها مقدماً وفقاً لمبادئ الأخلاقية حتى يعرف هل تصلح أن تكون قدوة أصيلة ، أي انموذجاً يحتذى به ، لكنها لا يمكنها بنفسها أن تزودنا بفكرة الأخلاقية وحتى نموذج القديس الذي يتحدث عنه الانجيل يجب أن يقارن أولاً بمثلنا الأعلى عن الكمال الأخلاقي قبل أن نقر بأنه قديس ، ولهذا يقول هو عن نفسه لماذا تسميني خيراً أن الذي تراه ، لا خير لا نموذج للخير الا الله وحده الذي لا تراه ، ولكن من أين اكتسبنا تصورنا لله على أنه الخير الأسمى"[١٩] ، فقط من الفكرة التي يرسمها العقل قبلياً للكمال الأخلاقي ، والتي يربطها ربطاً ، لا انفصام له يتصور الإرادة الحرة ، وفي أمور الأخلاق لا محل ابداً للاقتداء ، والقدوات لا تفيد إلا في التشجيع ، أي أنها تزيل الشك عن إمكان تنفيذ ما يأمر به القانون ، وتدرج تحت العيان ، ما تعبر عنه القاعدة العملية بطريقة أعم ، لكنها لا تستطيع ابداً ان تعطي الحق في اطراح أصلها الحقيقي القائم في العقل ، وفي السير وفقاً لها [٢٠] .

ويضيف الدكتور عبد الرحمن بدوي معلقاً على قول كانط بأنه يعني أن قيمة القدوة أو المثل او النموذج لا تعرف الا بفكرة الكمال الأخلاقي ، فلابد أن تكون لدينا مسبقاً فكرة الكمال الأخلاقي وتبعاً لها نحكم على هذه القدوة المقترحة تتفق وإياه وإلى أي مدى ، أن القانون الأخلاقي قانون قبلي أي سابق على التجربة ، موجود في طبيعة العقل ، وصالح لكل الكائنات العاقلة ، ولا يمكن أن يستمد من التجربة ، بل هو سابق منطقياً عليها ، وعال عليها ، ولا يعني هذا أن القدوة غير مقيدة كلا أنها مقيدة في إيضاح القانون وفي إثبات أن القانون الأخلاقي قابل للتطبيق وتشجع على السير على هذا القانون الأخلاقي ، ولهذا يمكن أن يقال أن الضمير عند كانط هو العقل العملي الذي يضع قانونا قبلياً للأخلاق [٢١] .

## المبحث الثاني

## الضمير الأخلاقي في الفكر الإسلامي



مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية ٢٠٢٥ المجلد ١٥/ العدد ٤

لم توجد لفظة الضمير بالمعنى الأخلاقي في اللغة العربية إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأن كانت اللغة العربية قد عرفت الضمير تعبيراً عن السر أو داخل الخاطر أو ما هو مضمر في النفس[٢٢] ، ولذلك نجد الفلاسفة والمتصوفة المسلمين وان اهتموا اهتماماً كبيراً بالتحليل الدقيق للكثير من العواطف النفسية التي تتصل بالأخلاق ، كالندم والتوبة ، إلا أنهم لم يتعرضوا لكلمة ضمير ، هذا من الناحية اللفظية ، اما من الناحية المعنوية فقد عنى الفكر الإسلامي باستخدام الضمير الأخلاقي كمعنى وكقوة لا غنى عنها في الأخلاق وأن كان قد استخدم للتعبير عنها ألفاظاً أخرى غير كلمة ضمير ، مثل استخدامه مثلاً لكلمة زاجر ، فقد قيل : " من لم يكن له من نفسه زاجر لم تنفعه الزواجر وأحياناً أخرى يستخدم لفظ الواعظ "[٢٣] .

فقد روى عن رسول الله (ص) انه قال : " إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه " وكلمة زاجر هنا أو واعظ تشير إلى وظيفة الضمير التي تحمل في اللفظة الأولى معنى المنع أو الحيلولة دون عمل الشر ، وفي اللفظة الثانية معنى الأمر بعمل الخير والنهي عن ارتكاب الشر ، أما عن القوة التي تقوم بهذه الوظيفة ، فقد ظلت في الفكر الإسلامي غير محددة ، وقد كان القرآن وهو المصدر الأول لهذا الفكر سبباً في عدم هذا التحديد ، وذلك لاستخدامه ألفاظاً متعددة للتعبير عن هذه القوة التي تقوم بوظيفة الضمير بمعناه الأخلاقي كما نفهمه اليوم ، وكما فهمه السلف الصالح أيضاً فتارة يعبر عن الضمير بالنفس ، واستخدام القرآن للنفس هنا يجيئ تعبيراً عن وظائف الضمير بعد أن يضيف عليها ما يلائمها من الصفات ، فعندما يراد معنى الضمير الذي يعني معرفة الخير والشر[٢٤] ، يقول تعالى : { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا Θ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا } [٢٥] ، وعندما يراد بها الضمير بمعنى القوة الملزمة الآمرة بفعل الخير ، الزاجرة الناهية عن فعل الشر يسميها الله تعالى { بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ } [٢٦] ، والنفس اللوامة هنا بمعنى النفس المتقية التي تلوم النفوس الأخرى على تقصيرهن في التقوى ، كما تلوم نفسها وان اجتهدت في الإحسان ، وقد قيل : إن المؤمن لا تراه إلا لائماً نفسه ، وأن الكافر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه ، وقيل : هي تلك التي تتلوم على ترك الازدياد وأن كانت محسنة وعلى التفريط أن كانت مسيئة ، وهذه لعمري لا تفترق عن معنى الضمير الأخلاقي كما نفهمه الان من حيث هو قوة ملزمة لصاحبها بعمل الخير زاجرة له عن عمل الشر أي ملزمة له بالواجب الأخلاقي[٢٧] .

كما جاء التعبير أيضاً في القرآن بالروح في أكثر من موضع نذكر منها قوله تعالى: **{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}** [٢٨]، وقوله: **{أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ}** [٢٩].

كما ورد التعبير في القرآن أيضاً بالقلب رابطاً بينه وبين التعقل قال تعالى: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }[٣٠] ، وبين الطبع عليه وقفله وبين فقدان الانسان القدرة على العلم قال تعالى: { **وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ** }[٣١] ، والتفقه قال تعالى: {**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ**}[٣٢] ، والتدبر قال تعالى: {**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ**}[٣٣] ، كما عبر عنه القرآن عن الإرادة الحرة التي تعني القدرة على فعل الخير أو الشر، وبها يصح التكليف ، يقول تعالى : { **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** }[٣٤] ، وكذلك رابطاً بين القلوب والهداية " { **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** }[٣٥] ، كما يعلق عليه الفوز بالجنة ، بعد أن يصفه مرة بانه { بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } [٣٦] ، ومرة أخرى بأنه : { بِقَلْبٍ مُنِيبٍ }[٣٧] .

وأخيراً يجيء التعبير بالعقل رابطاً بينه وبين الجزاء والاستحقاق مرة يقول تعالى: {**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**} [٣٨]، كما يلحق الرجس أو الذنب أو الخطيئة بمن افتقد هذه القوة، يقول تعالى: {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[٣٩].

كما يربط القرآن بين القلب وبين التعقل مرة أخرى، وبهذا نصل إلى قمة الخلط وعدم التحديد، يقول تعالى: {**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا**} [٤٠].

ولذلك رأينا الفكر الإسلامي وقد اختلط فيه الأمر بين هذه المصطلحات العديدة التي أشرنا لجانب منها التي يعبر بها القرآن عن معنى واحد ألا وهو ما أطلق عليه حديثاً لفظ الضمير ومن أجل ذلك نجد الغزالي مثلاً يستخدم كلمات : القلب والروح والنفس والعقل ، وبتحليل هذه الكلمات عنده لا يمكننا القول أن واحدة منها بالذات تعني الضمير ، ولكننا نستطيع أن نقول كما هو شأنها في القرآن أن الضمير داخل في معنى كل منها مع شيء من التسامح ، الأمر الذي نخلص معه إلى تأكيد وجود ما نعنيه بالضمير الأخلاقي في الفكر الإسلامي ، وأن لم نضع أيدينا عليه بلفظة ومسماه ، وها نحن نجد الشيخ محمد يوسف موسى يذهب مع الغزالي مؤكداً وجود تلك القوة سواء سميت بالضمير او القلب او النفس بمعنى اللطيفة الربانية العالمة المدركة ، أو العقل العملي الذي به يدرك الانسان الخيرات في الاعمال كما يتمكن به من سياسة قوى نفسه[٤١] .

وكذلك إذا كان من وظيفة الضمير الأخلاقي اظهار الاطمئنان والرضا عند فعل الخير والحسرة والندم أو الخوف والوجل عند فعل الشر، فكذلك كان الفكر الإسلامي، وأن كان لم يهتد إلى استخدام الضمير، فها هو القرآن يربط بين اطمئنان القلب وبين الايمان والتوبة في قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝ الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** [٤٢].

كما يربط الله تعالى بين اطمئنان النفس وبين العمل الصالح الذي يؤدي بالإنسان الى حسن الجزاء في قوله تعالى: **{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** [٤٣]، وقيل في تفسير النفس المطمئنة أنها النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك[٤٤].

ويقابل هذا وصف النفس او القلب بالخشية او الخوف او الوجل او ما شابه ذلك بالنسبة للأفعال المقبلة او الاعمال السيئة وهذا لا يتوفر الا للمؤمنين، اما غير المؤمنين فلا يبالون بذلك: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}** [٤٥].

وجاءت السنة تؤكد نفس المعنى فقد روى " والنواس بن سمعان رضى الله عنه عن النبي (ص) قال: " البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس" [٤٦]، وعن ايصة بن معيد رضى الله عنه، قال: أتيت رسول الله (ص) فقال: " جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم، قال استفت قلبك البر ما اطمأنت اليه النفس، وأطمأن اليه القلب، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وأن افتاك الناس وافتوك "[٤٧].

**الضمير فطري أم كسبي**

قد اختلف الباحثون كما رأينا حول الضمير في الفكر الأخلاقي هل هو فطري أم كسبي ، وذهب التجريبيون إلى أنه كسبي ، وذهب العقليون إلى أنه فطري ، وقد كان نفس الشيء عند الباحثين في الفكر الإسلامي ، فمنهم من رجح أن الضمير كسبي ، وقد شاع ذلك عند المفكرين الذين يتابعون منهج أهل السنة ، والذين يتصورون السلطة الملزمة بالواجب الأخلاقي أو الواجب الديني كما يحلو لهم أن يسموه متمثلة فقط في الأمر الالهي الخارج عن الانسان ، وليس على الانسان الا ان يلتزم بطاعة هذا الأمر التزام العبد بأمر السيد ، وقد رأينا هذا عند القابسي كما رأينا حديثاً عند الدكتور الأهواني ولعله كان في رأيه هذا متأثراً برأي القابسي الذي عنى ببحثه، إذ نراه يعد أن يستعرض الآراء المختلفة حول كسبية وفطرية الضمير ، نراه يميل إلى القول بكسبية الضمير[٤٨] ، إذ يقول أن " اختلاف اخلاق الناس باختلاف البيئات وتغير الأخلاق بالتربية

والتعليم وتنميتها بأحياء الضمير ، كل ذلك يدل على اكتساب الضمير لا على فطريته ، حتى لو قيل أن صوت الضمير من صوت الله ، فأن اختلاف الناس الى شيع وفرق ومذاهب في داخل الدين الواحد يبطل هذا الرأي [٤٩] .

وفي مقابل هذا الرأي نجد من الباحثين في الأخلاق الإسلامية من يذهب الى ترجيح القول بفطرية الضمير زاعماً أنه من الخطر الكبير ان يقال : أن الضمير الذي يرضى عن كذا من الاعمال ويعدها خيرات ، ويستنكر كذا من الاعمال ويعدها آثاماً كسبي لا فطري ، لأن هذا يذهب بجمال الفضيلة وقداستها ويشجع على انتهاكها ما دامت ليست الا من نسج العصور ، ولا قيمة لها في ذاتها ، كما لا يجعل للبحث الأخلاقي قيمة مادام الامر يعد التطور الذي يعمل عمله شئنا ام أبينا [٥٠] ، هذا وأن أرجح القول بجانب فطري وجانب كسبي في الضمير الأخلاقي في الإسلام ، وذلك لإقرار الأخلاق الإسلامية بأن القدرة على التمييز بين الخير والشر أمر مغروز في الانسان بفطرته ، يقول تعالى : { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** }[٥١] .

ولكن كيف للإنسان ان يميل جهة الفجور أو التقوى ، لابد من أمر جديد يجعله يرجح أحد هذين الأمرين ، وهذا هو الجانب المكتسب في الضمير ، الذي يكتسبه الانسان من خلال تأمل النفس لما هو حسن وما هو قبيح ، والقانون الأخلاقي الذي يحكمها وما يترتب على كل منهما من عاقبة حميدة او غير حميدة، فضلاً عن محاولة الاستفادة من السنن الصالحة والقدوات الخيرة ، كل هذا هو الذي يضاف الى الضمير كأمر فطري قادر على التمييز بين الخير والشر فيكسبه القدرة على الميل بصاحبه نحو الخير ، والبعد به عن الشر ، وهو أمر كسبي يورد النووي في شرحه للحديث الذي يبين علاقة القلب بالخير والشر ، أثراً يجمع فيه القول بفطرية الضمير وكسبيته[٥٢] ، وخلاصة هذا الاثر أن آدم عليه الصلاة والسلام أوصى بنيه بوصايا منها أنه قال : إذا أردتم فعل شيء فأن اضطربت قلوبكم فلا تفعلوه ، فأني لما دنوت من أكل الشجرة اضطرب قلبي عند الاكل ، ومنها أنه قال إذا أردتم فعل شيء فانظروا في عاقبته ، فأني لو نظرت في عاقبة الأكل ما أكلت من الشجرة ، ومنها أنه قال : إذا أردتم فعل شيء فاستشيروا الاخيار فأني لو استشرت الملائكة لأشاروا عليّ بترك الأكل من الشجرة [٥٣] .

وواضح من هذا الأثر انه يحدد مكونات سلطة الالزام بالواجب، وهي الضمير في ثلاث، أمر فطري وهو اضطراب القلب او عدم اضطرابه، وامران كسبيان هما ما يتعلق بالنظر فيما يترتب على الفعل من عواقب، وما يتعلق بقياس الفعل على رأي الاخيار من الناس او أهل القدوة الحسنة.

**سلطان الضمير**

لاشك ان الضمير الأخلاقي في الفكر الإسلامي بهذا المعنى الذي صورناه عليه قد تميز بسلطة فاقت كل السلطات ، بحيث انه لو توفر لأبناء أمة لكفاها مؤونة كل ما تبذله في محاسبة المخطئين من سلطات مدنية وقانونية ، وذلك لما يتوفر لكل انسان من سلطان من نفسه على نفسه يحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ، ويلزمه بطاعته مهما كلفه ذلك ، يؤكد ذلك القرآن الكريم ، في قوله تعالى : **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**[٥٤] .

ومن يستعرض تاريخ السلف الصالح من ابناء الامة الإسلامية، يوم كان لأبنائها ضمير اخلاقي، يرى الكثير من النماذج البشرية التي ضحت باسم الضمير لا بالإعزاء من الاهل والعشيرة والاصدقاء، بل بالنفس في سبيل الطهارة الخلقية، ذلك لا لشيء الا لما تميزوا به من الضمائر الحية، فضربوا المثل لسلطان الضمير الأخلاقي في الإسلام [٥٥].

من ذا الذي عرف سيرة رسول الله (ص) ولم يقرأ حديث الغامدية وما تضمنه من دلالة عميقة، تلك المرأة المرجومة بالزنا والتي أتت النبي (ص) فقالت: " يا رسول الله طهرني، فقال لها: ارجعي ثم أتته من الغد فاعترفت بالزنا، وقالت له: والله أني لحبلى، فقال له: ارجعي حتى تلدي. فلما ولدت جاءت بالصبي تحمله فقالت: يا نبي الله هذا وقد ولدته، قال لها: اذهبي حتى تفطميه. فلما فطمته جاءت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت يا نبي الله، هذا قد فطمته. فأمر النبي (ص) فدفع إلى رجل من المسلمين. وأمر بها فرجمت، ورماها خالد بحجر فنضح الدم على وجهه فسبها، فسمع النبي (ص) سبه إياها، فأسكته وقال له أصه، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ، فصلى عليها ودفنت [٥٦] .

**تربية الضمير**

قد عنى الفكر الإسلامي بتربية الضمير الأخلاقي ، وهذا يؤيد قولنا بان الضمير في جانب منه كسبي ، وقد كان الاهتمام بالضمير الأخلاقي من حيث تربيته وتكوينه من ثلاثة وجوه : يتعلق الوجه الأول بتربية الضمير من حيث هو قوة اودع الله فيها إمكانية إدراك الخير والشر ، ولكنها لا تتمكن منذ البداية عند (الصغار ) إيثار الخير على الشر ، أو ترجيح الخير على الشر ، وهنا يأتي دور التربية التي ينبغي ان تتوفر للإنسان منذ طفولته لضمان أن ينشأ وينمو في جو يكفل له تكوين الضمير الأخلاقي الذي يقوده إلى الخير ويمنعه عن ارتكاب الشر ، ومسؤولية هذا تقع

بالدرجة الأولى على الوالدين وفي هذا يقول الإمام الغزالي : " والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفسية ساذجة ، خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل الى كل ما يمال به اليه ، فأن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه ، كل معلم له ومؤدب ، وأن عود الشر وأهمل اهمال البهائم ، شقى وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له [٥٧] .

وقد قال تعالى : { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** }[٥٨] ومهما كان الادب يصونه عن نار الدنيا فأنه يصونه من نار الآخرة أولى ، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء ، ولا يعود التنعم ، ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر ، فيهلك هلاك الايد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره ، فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فأن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبث ، فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث[٥٩] ، وإذا نظرنا إلى نص وقل الغزالي هذا نجده يركز على ثلاثة أمور : أولها اختيار الاب أو ولي الامر المحيط الذي يمثل مجتمع الطفل ، ألا وهو قرناؤه فيحرص على ان يكونوا قرناء خير لا قرناء سوء. الأمر الثاني هو تكوين ذات الطفل ليكون رجلاً بتعويده على الخشونة والبعد به عن حياة التنعم والميوعة، وذلك ليضمن له ضميراً حياً قوياً لا يكون الا للرجال. الأمر الثالث: هو الحرص على غرس بذرة الدين في الطفل منذ نعومة اظفاره وذلك باختيار المرأة الصالحة المتدينة التي تقوم على إرضاعه ورعايته. والإسلام قد أولى قضية اختيار المرأة، سواء عن اختيار الزوجة أو كمربية اهتماماً كبيراً، فقد جاء في الحديث الشريف عن اختيار الزوجة عن النبي (ص) قال : لا تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فأظفر بذات الدين تربت يداك "[٦٠] .

ويقيني ان الامور الثلاثة التي اشرت اليها في نص قول الغزالي والتي يستند اليها في تربية الطفل ، وبالتالي في تربية وتكوين الضمير فيه مع نشأته والذي يمثل مصدر الزامه بعمل الواجب الأخلاقي ، قد جاءت متفقة مع قول الله سبحانه وتعالى عندما حدد لنا مصدر الالزام هي تلك المحكمة الثلاثية التي تقوم على الدين والمجتمع والذات[٦١] ، يقول تعالى مشيراً الى عنصر الدين متمثلاً في سلطان الله ورسوله بقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }[٦٢] .

كما اشار سبحانه وتعالى الى سلطان المجتمع بقوله: {**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**} [٦٣]، ثم يشير الى سلطان الذات الانسانية بقوله: {**وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**} [٦٤].

اما الوجه الثاني الذي يتعلق يشير به الضمير الأخلاقي ، فهو ما يتعلق بالإنسان الناضج إذا أخطأ ، والانسان بطبعه غير معصوم من الخطأ ، فكيف كان الحل الإسلامي لمسألة الخطيئة من أجل المحافظة على قوام الضمير وحمايته من الوقوع في اليأس الذي قد يقوده الى العجز عن متابعة وظيفته الأخلاقية فإذا كانت العقيدة المسيحية قد ربطت بين الانسان وبين الخطيئة المطلقة منذ آدم عليه السلام ، الأمر الذي جعله يتعثر فيها ، ويصور له الحياة كلها على أنها بحر من الاحزان لا يمكن للإنسان التخلص منه الا بمحاربة الحياة الدنيا برمتها حيث تحل الخطيئة ويتجه الى العالم الآخر[٦٥] ، فأن العقيدة او الأخلاق الإسلامية لم ترض بهذا ووضعت الحل الذي يتمكن معه الانسان ان يسترد صحة ذاته فيتخلص من الخطيئة المطلقة ، أو انه لا يشعر بوجود الخطيئة المطلقة التي تصورها الانسان المسيحي ، ثم يتخلص من الخطيئة التي قد يقع فيها في حياته الدنيا ، بانحرافه عن جادة الصواب ، فلا تصير ثقلاً عليه ، وكان الحل الإسلامي لذلك بالتوبة والندم [٦٦] .

وعن خطيئة آدم القديمة قال الله تعالى : {**وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**}[٦٧] ، ويقول الطبري في تفسير ما يهمنا من هذه القصة : " ان الله جل ثناؤه لقى آدم كلمات فتلقاهن آدم من ربه فقبلهن ، وعمل بهن ، وتاب بقبوله إياهن وعمله بهن إلى الله من خطيئة ، معترفاً بذنبه متنصلاً الى ربه من خطيئة نادماً على ما سلف منه من خلاف أمره ، فتاب الله عليه بقبوله الكلمات التي تلقاهن منه وندمه على سالف الذنب منه[٦٨] الأمر الذي لم يبق معه لهذه أثر في نفس المسلم .

ومن أجل ذلك فقد أولى الفكر الأخلاقي في الإسلام قضية الرضا عن فعل الخير والتوبة والندم على فعل الشر أهمية كبيرة ، وهو ما يعرف باسم محاسبة النفس باستمرار ، عما تأتي من افعال ، على ان يعقب المحاسبة اعلان الرضا عن الافعال الخيرة وطلب المزيد منها : { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ }[٦٩] ، كما يعقبها اعلان الندم والتوبة عن الافعال الشريرة مع عدم اليأس والقنوط : { لَا

تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ }[٧٠] ، أي أن الأخلاق الإسلامية قد دعت الى رضا وتوبة ديناميكيين يعملان على تربية الضمير في الانسان مع المحافظة على صحته عن طريق ترقيته وتطويره من خلال اللذان الانسانية ككل ، وقد يذكرنا هذا بقول شوبنهور عن الندم بانه ليس ان يقول النادم : " أه يا ويلتاه ماذا فعلت " بل أن يقول : أه يا ويلتاه أي إنسان أنا " أو " أي إنسان أنا حتى أقدر على إتيان مثل هذا الفعل ، ذلك أن الصبغة الثانية تدل على ان الفعل صدر عن جوهر الانسان كله [٧١] .

وبالتالي فأن الندم لا يتعلق بفعل مفرد ، بل بكيان الشخص كله ، ويرتبط بالشخص ارتباطاً عضوياً بحيث يدهش النادم كيف صدر عن كيانه مثل هذا الفعل ، وكأنه يقول : ماذا دهى الذات حتى تقدر على ارتكاب هذا الفعل ، وهذه النتيجة الايجابية التي ربط فيها شوبنهور بين الندم وبين الذات ككل هي التي تشارك في تربية الضمير والتي تتفق فيها وجهة نظر شوبنهور مع وجهة النظر الإسلامية ، اما الربط بين الشعور بالرضا وبين الحركة المستمرة في الفعل والبعد به عن السكون والسلبية فقد وافق فيها جانكلفيتش وجهة النظر الإسلامية في قوله : " ان الرضا السكوني يتكور في الفعل المنجز ، كما يتحجر الالهام الملهم في الاعمال الملهمة ، وكما تسكن السورة الحيوية ، وهي تدور حول نفسها في مكانها في الاجهزة العضوية "[٧٢] ، ومن خلال هذه الحركة التي تميز الندم والرضا يتكون الضمير الأخلاقي ويقوى باستمرار بالرضا يستزيد من الخيرات وبالندم يقلل من السيئات عند صاحبه .

اما الوجه الثالث في تربية الضمير الأخلاقي فيتمثل في حمايته مما يقوم عائقاً في سبيل تكوينه او في سبيل أدائه لوظيفته ، ويتصور الفكر الإسلامي هذا العائق في ذلك الجانب الحيواني في الانسان الذي يشده باستمرار نحو ارضاء ما فيه من هوى وغرائز ونزعات حيوانية ، يكون ذلك حينما تتحول النفس من كونها نفساً لوامة او نفساً مطمئنة الى نفس أمارة بالسوء يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام : { **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** }[٧٣] .

وقد كان صدى ذلك المفهوم للنفس بهذا المعنى واضحاً في الفكر الإسلامي، فها هو الغزالي يصف النفس بقوله: " اعلم ان نفسك أشد عداوة لك " كما في الحديث " نفسك التي بين جنبيك هي أعدا عدوك، تدعوك إلى الوبال وترشدك الى الضلال وتوقعك في الدناءة ، وتركبك نفس الهوى ، وتطعمك وتهلكك وتملكك ما قطع أخصالها وخلالها وشرها وشركها وطمعها وولعها وشعها "[٧٤] .

من أجل هذا القصور الإسلامي للنفس كانت تربية الضمير ايضاً نقوم من خلال الدعوة الى مجاهدة الانسان لنفسه من حيث غرائزه واهواءه، أو بعبارة أشمل من خلال الدعوة إلى مجاهدة الانسان لنفسه من جانبه الحيواني من أجل قيام ضمير حي يعينه ويرشده على عمل الخير ويبعده عن عمل الشر.

**الخاتمة**

وختاماً قد رأينا بعض الباحثين يحاولون أن يقدموا صورة للضمير الأخلاقي ، كصورة من صور الالزام ، مستدلين على ذلك بسقراط ، الذي تمثلوا الضمير عنده فيما أسماه بصوت الاله في داخله ، متتبعين ذلك عند من اتوا بعده في الفلسفة ، كما استندوا على ما وجدوه في العهد القديم والعهد الجديد متمثلاً فيما اشتملت عليه من صور التحريم التي جاءت بها الوصايا والأوامر الالهية وشاع بعد ذلك في الأخلاق الدينية ، الا ان الحديث عن الضمير وحده ومحاولة تحديده ووصفه لا يمكن ان يكتفي به في تقديم ضالة الفلسفة الأخلاقية التي كانت تنشد جانب الالزام في العمل الأخلاقي وهذا ما أكدته التحديدات التي أوردها الباحثون للضمير فكلها كانت تؤكد علاقة الضمير بالخير والشر موضوع المعرفة الأخلاقية .

**الهوامش**

(١) بلدي، نجيب ، مراحل الفكر الأخلاقي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص٣٥.
(٢) المصدر نفسه ، ص٣٥.
(٣) المصدر نفسه ، ص٣٥.
(٤) المصدر نفسه ، ص٣٨.
(٥) مدكور ، إبراهيم بيومي ، في الأخلاق والمجتمع ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص٧-٨.
(٦) المصدر نفسه ، ص٧-٩.
(٧) قابيل، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص٨١.
(٨) موسى ، محمد يوسف ، فلسفة الاخلاق في الإسلام وحلاتها بالفلسفة الاغريقية ، ط٣ ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص١٤٤.
(٩) الطويل، توفيق ، الفلسفة الخلقية ، نشأتها وتطورها ، دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص١٨٨.
(١٠) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٢.
(١١) قابيل، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٢.
(١٢) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٣.
(١٣) بدوي ، عبد الرحمن ، الاخلاق النظرية ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٥ ، ص٦٠ – ٦٢.
(١٤) بدوي ، عبد الرحمن ، الاخلاق النظرية ، ص٦٩.
(١٥) المصدر نفسه ، ص٦٩.
(١٦) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٥.
(١٧) الطويل ، توفيق ، الفلسفة الخلقية ، ص٣٤٩.

(١٨) المصدر نفسه ، ص٣٤٩.
(١٩) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٦.
(٢٠) المصدر نفسه ، ص٨٦.
(٢١) بدوي ، عبد الرحمن ، الأخلاق النظرية ، ص٦٨.
(٢٢) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٧.
(٢٣) المصدر نفسه ، ص٨٧.
(٢٤) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٨.
(٢٥) سورة الشمس: الآيتان: ٧-٨.
(٢٦) سورة القيامة: الآية: ٢.
(٢٧) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٨٨.
(٢٨) سورة النحل: الآية: ٢.
(٢٩) سورة المجادلة: الآية ٢٢.
(٣٠) سورة الحج: الآية ٤٦.
(٣١) سورة الروم: الآية ٥٦.
(٣٢) سورة التوبة: الآية ٨٧.
(٣٣) سورة محمد: الآية: ٢٤.
(٣٤) سورة الاحزاب: الآية: ٥.
(٣٥) سورة آل عمران: الآية: ٨.
(٣٦) سورة الشعراء: الآية: ٨٩.
(٣٧) سورة ق: الآية: ٣٣.
(٣٨) سورة الملك: الآية: ١٠.
(٣٩) سورة يونس: الآية: ١٠٠.
(٤٠) سورة الحج: الآية: ٤٦.
(٤١) موسى ، محمد يوسف ، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية ، ط٣ ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص١٣٩-١٤٠.
(٤٢) سورة الرعد: الآيتان: ٢٦-٢٧. انظر: الطبري ، ابن جرير ، جامع البيان ، تحقيق وتقديم : خليل الميس ، ضبط وتوثيق وتخريج : صدقي جميل العطار ، ج١٦ ، ١٩٩٥ ، ص٤٣١ -٤٣٢ .
(٤٣) سورة الفجر: الآيتان: ٢٧-٢٨.
(٤٤) انظر: الزمخشري ، ابو القاسم ، الكشاف ، دار الكتاب العربي ، ج٤، بيروت ، ١٩٨٧ ، ص٢٥٤.
(٤٥) سورة الانفال: الآية: ٢.
(٤٦) رواه مسلم. انظر: قابيل، عبد الحي محمد، المذاهب الأخلاقية في الإسلام، ص٣١.
(٤٧) النووي ، محي الدين بن يحيى ، كتاب الاربعين النووية وشرحها ، دار المنار ، مصر ، ١٣٤٢هـ ، ص١٩.
(٤٨) الاهواني ، أحمد فؤاد ، المعقول واللامعقول ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص١٢٠ ؛ ايضاً أنظر: الاهواني ، أحمد فؤاد ، التربية الإسلامية ، طبع دار المعارف ، ١٩٦٨ ، ص١١٩.
(٤٩) الاهواني ، احمد فؤاد، المعقول واللامعقول ، ص١٢٠.
(٥٠) موسى ، محمد يوسف ، فلسفة الاخلاق ، ص١٤٥.
(٥١) سورة الشمس: الآيتان: ٧-٨.
(٥٢) النووي ، محي الدين بن يحيى ، كتاب الاربعين النووية وشرحها ، ص٦١.
(٥٣) المصدر نفسه ، ص٦١.

(٥٤) سورة المجادلة: الآية: ٢٢ ؛ ايضاً انظر: قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٩٣.
(٥٥) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٩٤.
(٥٦) ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج٥، المطبعة الوهبية ، مصر ، ١٣٨٠هـ ، ص٦٤٢.
(٥٧) الغزالي ، ابو حامد محمد ، إحياء علوم الدين ، مكتبة الشعب ، مصر ، ١٩٦٩، ص١٤٦٨.
(٥٨) سورة التحريم: الآية ٦.
(٥٩) الغزالي، احياء علوم الدين ، ص١٤٦٨.
(٦٠) العسقلاني ، أبو الفضل احمد بن حجر ، بلوغ المرام من أدلة الاحكام ، بيروت ، ١٣٧٣ هـ ، ص١٧٨ – ١٧٩.
(٦١) العسقلاني ، أبو الفضل احمد بن حجر ، بلوغ المرام من أدلة الاحكام ، ص٢٠٨.
(٦٢) سورة الانفال: الآية ٢٨.
(٦٣) سورة التوبة: الآية: ١٠٥.
(٦٤) سورة الاسراء: الآيتان: ١٣– ١٤.
(٦٥) انظر: اسد ، محمد ، الإسلام في مفترق الطرق ، ترجمة: عمر فروخ ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص٢٨–٢٩.
(٦٦) قابيل، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٩٧.
(٦٧) سورة البقرة: الآيات: ٣٥–٣٧.
(٦٨) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، تفسير القرآن ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ ، ص.
(٦٩) سورة البقرة: الآية ١٤٨.
(٧٠) سورة الزمر: الآية: ٥٣.
(٧١) قابيل ، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، ص٩٨.
(٧٢) بدوي ، عبد الرحمن ، الاخلاق النظرية ، ص٨٨.
(٧٣) سورة يوسف: الآية: ٥٣.
(٧٤) الغزالي ، أبو حامد ، كتاب سر العالمين وكشف ما في الدارين ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٧هـ ، ص٨١ ؛ ايضاً انظر: الاصفهاني ، الرابغ ، الذريعة الى مكارب الشريعة ، ط٢٠ ، مطبعة الوطن ، القاهرة ، ب.ت ، ص٢٣ ؛ كذلك انظر: الاصفهاني ، الراغب ، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، المطبعة الحميدية ، مصر ، ١٢٢٣ هـ ، ص٩.

**المصادر**


١– بلدي، نجيب ، مراحل الفكر الأخلاقي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢.
٢– مدكور ، إبراهيم بيومي ، في الأخلاق والمجتمع ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٣– قابيل، عبد الحي محمد ، المذاهب الاخلاقية في الإسلام ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .
٤– موسى ، محمد يوسف ، فلسفة الاخلاق في الإسلام وحلاتها بالفلسفة الاغريقية ، ط٣ ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٦٣.
٥– العسقلاني ، أبو الفضل احمد بن حجر ، بلوغ المرام من أدلة الاحكام ، بيروت ، ١٣٧٣ هـ ، ص١٧٨ – ١٧٩.
٦– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، تفسير القرآن ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ.

٧- الغزالي ، أبو حامد ، كتاب سر العالمين وكشف ما في الدارين ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٢٧هـ ، ص٨١ ؛ ايضاً انظر: الاصفهاني ، الرابغ ، الذريعة الى مكارب الشريعة ، ط٢٠ ، مطبعة الوطن ، القاهرة ، ب.ت ، ص٢٣ ؛ كذلك انظر: الاصفهاني ، الراغب ، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، المطبعة الحميدية ، مصر ، ١٢٢٣ هـ.
٨- الاهواني ، أحمد فؤاد ، المعقول واللامعقول ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠ ، ص١٢٠ ؛ ايضاً أنظر: الاهواني ، أحمد فؤاد ، التربية الإسلامية ، طبع دار المعارف ، ١٩٦٨ .

**Sources**

1.Baladi, Najib, Stages of Ethical Thought, Dar al-Ma'arif, Cairo, 1962.
2.Madkour, Ibrahim Bayoumi, On Ethics and Society, General Organization for Authorship, Translation, and Publishing, Cairo, 1974.
3.Qabil, Abd al-Hay Muhammad, Ethical Schools in Islam, Dar al-Thaqafa for Publishing and Distribution, Cairo, 1984.
4.Musa, Muhammad Yusuf, The Philosophy of Ethics in Islam and Its Approaches in Greek Philosophy, 3rd ed., Al-Khanji Foundation, Cairo, 1963.
5.Al-Asqalani, Abu al-Fadl Ahmad ibn Hajar, Bulugh al-Maram min Adillat al-Ahkam, Beirut, 1373 AH, pp. 178-179.
6.Al-Tabari, Abu Ja'far Muhammad ibn Jarir, Interpretation of the Qur'an, edited by Mahmoud Muhammad Shaker, Dar al-Ma'arif, Cairo, 1374 AH.
7.Al-Ghazali, Abu Hamid, The Secret of the Two Worlds and the Uncovering of What is in the Two Realms, Al-Sa'adah Press, Egypt, 1327 AH, p. 81; also see: Al-Isfahani, Al-Rabi'ah, Al-Dhari'ah ila Makarib Al-Shari'ah, 20th ed., Al-Watan Press, Cairo, n.d., p. 23; also see: Al-Isfahani, Al-Raghib, Tafseel Al-Nashateyn wa Tasleel Al-Sa'adatain, Al-Hamidiyyah Press, Egypt, 1223 AH.
8.Al-Ahwani, Ahmad Fu'ad, The Rational and the Irrational, Dar Al-Ma'arif, Egypt, 1970, p. 120; also see: Al-Ahwani, Ahmad Fu'ad, Islamic Education, Dar Al-Ma'arif Press, 1968.